مقدمة

فن الحكم، ذلك الفن النبيل العظيم، قد شوَّهه وبدَّل محاسنه الكثير من مبادئ خاطئة جعلته فنًّا للكذب والخداع والاضطهاد والإفساد، تحت ستْر كاذب من العدالة الموهومة.

وإنك لتجد بجانب السياسيين الذين حكموا لصالح الشعوب وتفانوا في سبيل النهوض بها، سياسيين آخرين استغلوا السلطة لقضاء مصالحهم وشهواتهم. تلك الشهوات هي موضوع هذه الدراسة.

لقد تصدر لحكم الإنسانية رجال كان فيهم السفاك والمغتصب واللص والمزيف والمفلس والمعتوه والمجنون ورجال مرتشون وآخرون نبت الفساد في حجورهم وترعرع. وما أكبرها مسؤولية، مسؤولية هؤلاء الرجال، الذين حكموا الأُمة وقادوها، وكان في مقدورهم أن يخففوا من متاعب شعوبهم، ويرفعوا من مستوى الأخلاق فيها، ولكنهم أفسدوا وأساؤوا إلى مواطنيهم بما أصدروا من قوانين فاسدة وما قدموا من مُثُلٍ سيئة. فليس أشر على الإنسانية من الرجل الذي يدعو إلى التفرقة والبغضاء مدفوعًا بطمعه وجشعه وحسده. فالأشرار العاديون الذين تحاكمهم المحاكم إنما يقتلون أو يسرقون أفرادًا قلائل، فعدد ضحاياهم محدود، أما أشرار السياسة فتعد ضحاياهم بالألوف، فهم يُفسْدون ويخربون أممًا بأكملها.

لقد تقدمت المدنية بالإنسانية في كل ناحية من نواحيها إلَّا السياسة فإنها لا تزال مرتعًا فسيحًا للغش والدس وخنق الحق والحرية. إنَّ الجماعة الإنسانية، الفخورة بما وصلت إليه من تقدُّم صناعي واختراعات علمية، لتطأطئ الرأس خجلًا كلما فكرت فيما آلت إليه أخلاقها السياسية والمالية. إنها تستطيع أن تظهر في معارضها آلات صناعية مثيرة للفكر، ولكن تلك الآلة السياسية الكبرى التي تدعى الحكومة لا تزال ناقصة نقصًا معيبًا، والرجال المعهود إليهم بإدارة دفتها ليسوا بأكثر الناس عقلًا وأوسعهم إدراكًا وكما لاحظ لتريه: «كل شيء عندنا يتقدم إلَّا الأنظمة السياسية فإنها، بما تقع فيه من أخطاء، تسلبنا دائمًا كل منفعة قد تعود علينا».

وأنا أرمي بتعداد الجرائم التي ارتكبتها الأنظمة السياسية في مختلف الأزمنة والمبنية على العنف والقوة أن أثبت، بأدلة من الوقائع، أن السياسة الشريفة المخلصة أجدى أنواع السياسات، وأن السياسة إذا تخلت عن الأمانة والشرف هبط مستواها وانقلبت إلى مجازفات ورياء. وأخيرًا، كما قال تاسيتوس: «إن أفضل آلة للحكم الطيب هم الرجال الطيبون».

فالمسألة السياسية، شأنها شأن المسألة الاجتماعية، ما هي إلَّا مسألة أخلاق قبل كل شيء. فهدف السياسة الحقيقي يجب أن يكون السعي لجعل الناس أكثر فهمًا وأنقى أخلاقًا واتحادًا وسعادة. فأفضل السياسات إذًا ما دعت إلى الخير، وتقليل الآلام، وتخفيف حدة البغضاء، وتشجيع الجدارة والعمل، وتنمية معنى الخلق بين أفراد الشعب. أما المشاحنات السياسية التي تدور حول الألفاظ والأشخاص، فإنها تحرك الشعب وتهيجه دون أن تؤدي إلى أي تقدُّم. فليست المناورات الوزارية والأوامر والدكريتات والقوانين التي لم تُبحث البحث الكافي، والتي تتغيّر وتتبدل بين آنٍ وآخر، هي التي تصلح لتقويم الإنسانية، بل إنَّ تقدمها رهين بالعواطف الأصيلة والتفكيرات العميقة

المنبعثة من القلب، ورهين بالمثل الحسن الذي يقدمه من يملكون السلطة في الشعوب. من أجل ذلك، ودون أن أذهب إلى حد مجاراة أفلاطون في القول بأن الحكومات يجب أن يديرها الفلاسفة، فإني أعتقد أن السلطة يجب أن لا يتولاها إلَّا من لديه قسط من الفلسفة، أي: الذين يخضعون لمبادئ مصدرها نوع من الاعتقاد الديني. فالشعور الديني الصحيح هو الذي يمنع الهيئة الإنسانية من الاندفاع في تيار الفساد، ولكن ذلك الشعور لسوء الحظ قد فقد في السنين الأخيرة الكثير من مفعوله وبالأخص في أوروبا.

ولست أجهل أن الشهوات سوف تظل تلعب دورها في شؤون السياسة. ولكن ذلك لا يمنع من أن نأمل أن نرى السياسة يومًا ما أقوم خلقًا وتهذيبًا. فلقد نجح العقل الإنساني في التخلص من الرق والاستعباد ومن امتيازات الملوك واستبدادهم. فلماذا لا ينجح في أن يجعل السياسة أكثر اعتدالًا وإخلاصًا، وأقرب إلى العدل والإنسانية؟